إسكندر بوشكين

المبارزة

مجموعة قصصية

ترجمة

عبد الحميد يونس

اســـــم الكتـــــاب: المبارزة

اســـم المـــؤلـــــف: إسكندر بوشكين

التـرقيم الـــــدولي:978-977-6666-42-9

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع © محفوظة لدار المحرر الأدبي للنشـر والتوزيع المشـهرة برقم ٢٤٨٢١ بتاريخ ٢٠١٥/١٠/١. ومقرها جمهورية مصر العربية / محافظة الجيزة.

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشــر أو تخزينه في نطاق اســتعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون موافقة قانونية مكتوبة من الناشر يعرض صـــاحبه للمســـاءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

إسكندر بوشكين أمير الشعراء الروس

ولد (الكساندر بوشكين) في موسكو، في الثامن من يونيو سنة ١٧٩٩، وتوفي في بطرسبرج، في العاشر من فبراير سنة ١٨٣٧، وهو سليل أسرة من الأشراف، كان من شأنها الإعجاب بكل ما يتصل بفرنسا والفرنسيين ولا سيما آدابهم.

وكان الفتى إسكندر يحفظ عن ظهر قلب كثيراً من بدائع موليير وفولتير، ولم يكن الحفظ عسيراً عليه، لما أوتيه من ذاكرة قوية ممتازة، وقد ظل طوال حياته قارئاً نهماً، حتى روي أنه لما حضره الموت شخص ببصره إلى الكتب المرصوفة على الرفوف وقال: (وداعا يا رفاقي الأعزاء).

وأجداد بوشكين من جهة أمه أفريقيون، ويحتمل أنهم أحباش، وقد جُلب جده (أبرام هانيبال) إلى بطرسبرج - من القسطنطينية - هدية إلى البطرس الكبير، ثم صار سكرتيره الخاص، وكان بوشكين يفتخر بجده الأسود، وكان متأثراً بدمه الافريقي، ولعل في هذا الدم يداً في نُضجه المبكر، وفي هذه الحرارة التي تفيض بها أغانيه، على أن هذا التأثير لم يبلغ من الشدة بحيث يظن كثيرا من الناس.

وفي سنة ١٨١١ دخل الليسيه في تسارسكوي سيلو، وهي مدرسة داخلية أسسها القيصر المتحرر الفكر إسكندر الأول، وشيد بنايتها في جانب من بلاطه؛ وهناك أنفق بوشكين ست سنوات سعيدات، طبعت أثناءها أولى قصائده، وكان عمره عندئذ أربعة عشر عاماً.

ولما ترك المدرسة التحق بوزارة الخارجية، ولكنه لم يحبر قط بلاغا رسميا، وما كان ينتظر منه لك، وما بلغ الثامنة عشرة حتى كان باعتراف

شـيوخ الأدب، من أمثال كارامازين وجوكوفسـكي، زعيما لشـعراء عصـره، وحتى كان شعره بغية الشبان يدرسونه ويحفظونه.

وقد لعبت السياسة دوراً مهما في حياته، فمع أنه لم يكن عضواً في الجمعية السرية التي تشكلت سنة ١٨١٨، ثم سحقها الجيش في فتنته التي شبَّ أوارها سنة ١٨٢٥، فانه عبر في قصائده عن أغراضها - وخلاصتها تأليف حكومة دستورية وتحرير الفلاحين - تعبيراً أقوى وأشد إقناعا من برامجها الطويلة ولكن ما لبث الرأي العام أن اشتد في مطالبته بالإصلاح والتحرير فقلَّ تسامح القيصر وفترت همته الإصلاحية، وكان بوشكين أول من نزلت به عاقبة هذا الخلاف بين الإمبراطور ورعيته وذلك أنه نشر في ذلك الوقت قصيدته الموسومة (بالحرية)، وقصيدتين أخريين في هجو أرا كتشيف فنفي على أثرها إلى جنوب روسيا.

وقد هيأ له منفاهُ - الذي لم يك قاسياً جداً - فرصة لمشاهدة بلاد القوقاز والقرم وبراري صربيا، حيث عاش تلك العيشة التي التمستها بيرون ثم ظفر بها في ألبانيا، وكان بوشكين مسحورا ببيرون، وما سحره منه أسلوبه الشعري، بل بساطته وإخلاصه وعنف عواطفه. وفي سنة ١٨١٩، دخلت الترجمة الفرنسية لكتاب بيرون روسيا، فرحب بها هو وطائفة من أصدقائه الأدباء ترحيبا حماسيا، بالرغم من سقمها وركاكتها، وبلغ من إعجاب الشاعر الروسي العظيم بالشاعر الإنجليزي أنه أخذ نفسه بتعليم الإنجليزية ليقرأه بلغته الأصلية، ولكن أسرار النطق الإنجليزي كانت تحيره وتربكه، حتى أن أصدقاءه الذين تعلموا الإنجليزية منذ طفولتهم كانوا إذا سمعوه يقرأ عليهم شكسبير لا يملكون أنفسهم من الإغراق في الضحك لأنه ينطق بالألفاظ الإنجليزية كأنها لاتينية!.

تأثر بوشكين ببيرون ولم يقلده - فما كان مقلداً وإنما كان مستعدا على الدوام لأن يتعلم ليس غير - وظهر هذا التأثير في قصيدتيه (سجين القوقاز) و(نافورة باختشيساراي). على أن التشابه قليل والفرق واضح بين الشاعرين: فبوشكين

أرق وأودع، وفكاهته النادرة أعمق، في غير إيلام، وفهمه لطبائع الشعوب وخصائص البلدان أوسع وأبعد مدى.

بيد أن تأثير بيرون زايل شاعرنا بالتدرج حتى إذا بدأ بتأليف قصته الشعرية (إفجيني أونيجن) لم يكن بقي منه شيء. وتعد هذه القصيدة أول ما ألف من القصص الروسي الجيد، وكان ترجنيفا يقول إن أربعة أبيات من مقدمتها تفضل آثاره جميعاً، وكان يجد لينين في صفحاتها مريحاً من عناء العمل، وقد سمي القيصر نقولا الثاني ابنتيه الكبريين - تاتيانا وأولغا باسمي الأختين في الرواية.

ومع ذلك كان بوشكين يفضل عليها قصيدته (بوريس جودونوف) (١٨٢٥). و(بولتافا) (١٨٢٨)، والأخيرة قصيدة تاريخية تصور النزاع بين بطرس الكبير وتشارلس الثاني عشر ملك السويد.

أما الأولى فقد نظمها في (ميخيلو فسكوى) وهي بيعة لأبيه، كان الشاعر نفي إليها بعد عودته من منفاه الأول لوقوع السلطات على رسالة له فيها ما يكرهون. وفي هذه الأعوام اشتد تركيز ذهنه وتمت له السيطرة على صناعته، وقوى فيه الشعور بقيمة اللفظ في الشعر، حتى كان لا ينشر القصيدة إلا بعد أن ينحى عليها بالتصحيح والتنقيح أعواما.

كان بوشكين حين نظم (جودونوف) تحت تأثير شكسبير. وهو من أوائل الروس الذين عرفوا شكسبير وقدروه حق قدره. قال في رسالة إلى بعض أصدقائه: (أي رجل شكسبير هذا!! وما أصغر بيرون، كتراجيدي، بالقياس إليه.. إن بيرون لا يقدر أن يصف إلا شخصية واحدة، هي شخصيته. فهو يعطي لهذه كبرياءهُ، ولتلك بغضه، ولأخرى مزاجه السوداوي؛ وهكذا ينتزع من شخصيته القوية النشيطة شخصيات كثيرة لا قيمة لها، وليس هذا من الفن التراجيدي في شيء).

وقد خلصه النفي من الاشتراك في الثورة التي قام بها أصحابه المعروفون بال ولما أذن له القيصر نقولا الأول في العودة من المنفى سنة ١٨٢٦،

واستدعاه إلى موسكو، سأله (ماذا يكون موقفك في يوم ١٤ ديسمبر في موسكو.) فأجابه بوشكين: (كنت أشترك مع إخواني العصاة).

وكان اجتماع القيصر بالشاعر خطة مدبرة أريد بها التأثير فيه وفي جمعيته التي استثار غضبها إعدام خمسة من الثوار. ولم يكن بوشكين - على قوته العقلية العظيمة - ليختلف عن الطفل في سذاجته وسرعة تصديقه وانقياده، ولذلك لم يجد القيصر صعوبة في اختلابه واجتذابه وإقناعه بأن الهدنة قد عقدت أخيراً بينه وبين الحكومة. ولم يكتشف كيف عبث به القيصر بمساعدة رئيس البوليس - كونت بنكيندورف - إلا بعد سنين.

لم يكن بوشكين يتصور وهو في منفاه مدى الشهرة التي نالها بين قومه. فلما عاد إلى الاشتراك في الحياة الاجتماعية أذهلته مقابلتهم له. فقد كتب بعض الكتاب يقول: (موسكو السعيدة تحتفل اليوم بتتويجين: تتويج القيصر وتتويج الشاعر).

وفي الثلاثين من عمره تزوج من فتاة جميلة في الثامنة عشرة تدعى (نتالي جونخاروفا) ولم يجلب عليه هذا الزواج سعادة بل ولا هدوءاً، وما كان بيت الزوجية أكثر من خان باهظ النفقات. كان الشعر آخر شيء تحفل له الزوجة الشابة، على أنها نجحت في المجتمع نجاحاً كبيراً. وفي هذه الفترة من حياة بوشكين ساءت أحواله. فقد تراكمت عليه الديون، وتغير ذوق الجمهور فلم يعد يتحمس ذلك الحماس لروائع آثاره، وتزايد حقد بعض فرق الأرستقراطية عليه، فعزم على الخروج بزوجه وأطفاله الأربعة إلى إحدى ممتلكات والده، حتى يتفرغ لمشاريعه الأدبية الكثيرة، ولكن القيصر عارض الفكرة. فاضطر إلى البقاء، واستمر في الكتابة فاتر الهمة مكتئب النفس: وحدث أن شاباً فرنسياً جميلا يقال له البارون دانت ' تعرف بزوجته وأخذ يتودد إليها في إلحاح شديد، فدعاه بوشكين إلى المبارزة، فبارزه وجرحه جرحاً بليغاً، أودي بحياته بعد يومين. وبموته تمت نبوءة عراف قال له سنة ١٨١٩. إنه سيصير معبود

قومـه، وينفى مرتين، وبـأن عليـه أن يحـذر رجلا جميلا قـد يقتلـه حين يبلغ السابعة والثلاثين.

اعتبر الشـعب موت بوشـكين رزية وطنية، واشـتد حزنه عليه حتى خشـيت الحكومة أن يؤدى إلى قيام مظاهرات عدائية فأمرت بنقل الجثمان ســـرا إلى مقبرة (سفياتيجيورسكي) - القريبة من ميخيلوفسكوي - وهناك دفن.

في أول ترجمة ظهرت بالإنجليزية لحياة بوشـــكين - وهي ترجمة رائعة نشـرتها مجلة (بلاكوود مجازين) سـنة ١٨٤٥ - كتب صـاحبها توماس أسـتاذ الإنجليزية في كلية (ليسيه) تسارسكوى سيلو، يقول: (يمكن أن يقال أن قصيدة (إفجيني أونجين) أصبحت جزءاً من لغة الشعب الروسي) ولا يزال هذا القول - وقد تقضت مائة عام - صحيحاً ملموساً.

إن أسـم (بوشـكين) يرن في أسـماع الروس رنين الأغاني والأغاريد. وقد تأصلت شخصيته في أعماق العقلية الروسية؛ وإن الروسي ليعجز، إن سألته، عن تفسـير حبه لبوشـكين، عجزه هن تفسـير حبه للبحر أو لنور الشـمس وقد يكون جوابه ابتسامة سعيدة يشرق بها وجهه.

المبارزة

كنا نعسكر في قرية روسية صغيرة، وأنت تدرك بالطبع حياة الضباط وما تكون عليه، نؤدي في الصباح التمرينات العسكرية ونتدرب على ركوب الخيل، ثم نتناول طعام الغداء عند قائد الفرقة أو في المطعم اليهودي، فإذا جاء الليل أخذنا نشرب الخمر ونلعب الورق، ولم يكن لنا غير هذا الجانب الضئيل من التسلية، لأن الفتيات الناضجات لم يكن يسمح لهن بالخروج، وكنا ننفق الوقت معا حتى إذا اجتمعنا لم تجد بيننا فرداً لا يرتدي الملابس الرسمية.

ثم تعرفنا على شخص من غير الجنود، ومع أنه كان في الخامسة والثلاثين تقريبا كنا نعتبره أكبر من هذا بكثير، وكنا نعتقد في حكمته وكثرة تجاربه، ولقد أسرنا نحن الشبان بكرمه وقوة شخصيته وما فطر عليه من التهكم وعدم الاكتراث. وخيل إلينا أن وراء هذا كله شيئا يكتمه، وأن بين ضلوعه سراً يطويه، ولقد نبئنا أنه كان في فرقة الفرسان يشهد له الجميع بالتفوق والنشاط، ثم استقال منها فجأة لسبب مجهول، واعتكف في هذه القرية الصغيرة؛ ومع قلة معاشه كنا نراه ينفق عن سعة ويفتح بيته لنا نحن الضباط، فإذا جلسنا إلى مائدته استطعنا أن نأكل ثلاثة أصناف من الطعام، وأن نشرب الكثير من كؤوس الشمبانيا؛ ولم نكن نعرف شيئا من شؤونه الخاصة، غير أن الذي يعد له طعامه هو خادمه العجوز الذي كان في مطلع حياته جنديا؛ ولم يجسر أحد على سؤاله عن حياته أو ماضيه.

وكانت له مكتبة حافلة بالكتب (معظمها خاص بالجندية وما يتصل بها) يعيرها مسروراً ولا يسأل عنها بعد ذلك، كما أنه إذا استعار كتابا لم يفكر في رده إلى صاحبه.. فإذا دخلت غرفته وجدت جدرانها مغطاة بظروف الرصاص فيكسبها ذلك شكل عش الزنبور؛ ولم يكن في داره من معالم الترف غير مجموعة ثمينة من البنادق والأسلحة.

وهو يرتدي في الغالب ســـترة رثة، فإذا نظرت إلى ملامح وجهه وجدته روسيا في الصميم، مع أنه يحمل اسما أجنبيا. ولقد كان ماهراً في الرماية إلى حد أنه يصـــوب بندقيته إلى خوذة الواحد منا فيصـــيبها دون أن ينال صـــاحبها بسوء.. وكثيراً ما تحدثنا عن المبارزة، ولكن (سيلفيو) (ولنسمه بهذا الاسم) لم يكن يشـــترك معنا في الحديث، فإذا ما ســـأله أحدنا عما إذا كان قد تبارز في حياته، رد بالإيجاب ولم يزد، وخيل الينا أنه يكره هذا الموضـــوع لأنه يثير ذكرى حادثة معينة قتل فيها فرد معين من ضحاياه العديدين.

وفي ذات يوم كان يتناول طعام الغداء في منزل (ســيلفيو) ثمانية أو تســعة من الضباط، وكنت أحدهم، واذكر أننا شربنا وأسرفنا في الشراب، فلما انتهينا من طعامنا رجونا من مضيفنا أن يكون أمين الصندوق في لعب الميسر، ولكنه رفض، لأنه قلما يلعب، فلما أصــررنا طلب لنا الورق وجلســنا إلى جانبه على شكل دائرة وأخذنا نلعب.

لم يتحدث الرجل أثناء اللعب ولم نجره إلى المعارضــة أو الشرح، وكان إذا أخطأ أحدنا أعطاه ماله أو حجز ما عليه لنفســـه. وكنا جميعا نعرف طريقته.. وحدث أثناء اللعب أن ضــاعف أحدنا (وكان ضــابطا حديث العهد بمعســكرنا) رهانه على ورقة بالذات دون قصد منه لانشغاله وذهوله، فما كان من سيلفيو الا أن تناول قطعة الطباشـــير وكتب المبلغ المطلوب فقط.. عارض الضـــابط وأراد أن يصــحح خطأه، ولكن ســيلفيو لم يعره اهتمامه، وظل يدير اللعب كان لم يحدث شــيء.. وهنا تناول الضــابط الطلاســة ومحا الأرقام، فأجاب مضــيفنا على ذلك بأن أعاد كتابتها في هدوئه المعهود. كان الضـــابط متأثراً بالشـــراب وباللعب وبضــحكات زملائه الســاخرة فظن أنه أهين، وتناول شــمعدانا رمى به وجه ســـيلفيو ولكنه انحنى قليلا إلى الأمام فأخطأته الضـــربة، فدمدمنا جميعا انتظرنا ماذا يكون بينهما.

وقف مضيفنا شاحبا، وسدد إلى الضابط نظرات دونها نظرات النسور وقال له (لتغادر المكان يا سيدي ولتشكر الله على أن ما حدث كان في بيتي).

ولم نشك لحظة في نتيجة هذا الحادث وما سوف يسفر عنه من قتل زميلنا الجديد. ونظرنا جميعا إليه وهو يغادر المنزل في وجوم معلنا استعداده لمقابلة سيلفيو في الوقت الذي يراه. وطبيعي الا يستمر اللعب بعد ذلك كثيراً لأننا انصرفنا واحدا بعد وأحد لما رأيناه على مضيفنا من علائم الذهول والانفعال. ولم نكد نعود إلى معسكرنا حتى أخذنا نتحدث فيما سيؤول إليه هذا الحادث الفريد.

وفي صبيحة اليوم التالي عندما كنا نقوم بتمريننا العادي على ركوب الخيل تساءلنا هل مات الضابط أم لا يزال على قيد الحياة؟ ولكنه ظهر بيننا، فعجبنا للأمر وأمطرناه وابلا من الأسئلة، فأجابنا أنه لم يتلق دعوة ما إلى المبارزة من سيلفيو، وأسرعنا إلى زيارة الرجل في منزله فوجدناه يتدرب على إطلاق الرصاص وقد الصق بالباب غرضا جعل يصوب الطلقات إليها له تباعا فلا يخطئه. فلما رانا تلقانا كعادته، ولم يذكر لنا شيئا عن حادث الليلة الماضية.. ومرت ثلاثة أيام والضابط لا يزال على قيد الحياة، ونحن نتساءل (ألا يتبارز سيلفيو؟) أجل لن يتبارز الرجل! بل راح يشرح الأسباب العرجاء التي لم تقنع أحدا منا.

وهذا الرفض وذلك الاحتمال من جانب الرجل أساء إلى سمعته بيننا نحن الشبان، لأن الشباب لا يغتفر الجبن، ويعتقد أن الشجاعة خير الصفات التي يجب أن يتصف بها المرء في جهاد الحياة، وأن الشجاع يستبيح لنفسه كل شيء : يحلل الحرام ويحرم الحلال. ولكن سرعان ما نسينا كل شيء بعد مدة، وسرعان ما استعاد سيلفيو مكانته القديمة بيننا.

وفي الحق أن رأيي في هذا الرجل لم يعد إلى ما كان عليه، لأنني رومانتيكي في خيالي وتفكيري، ولقد أحببت هذا الرجل أكثر من غيره، مع أنه كان لغزاً

للجميع. وكنت أتصـــوره دائما بطلاً لدرامة رائعة. وكنت واثقا من أنه يحبني، فإذا انفرد بي ترك تهكمه اللاذع وراح يتحدث معي في شتى المواضيع، ولكني بعد الحادث المعروف لم أكن أطمئن إليه ولا أرتاح إلى حديثه، لاعتقادي أنه أهين ولم يغسل إهانته بالدم، وكنت أتحاشى مقابلته أو النظر إليه.

وكان الرجل من الذكاء ونفاذ البصـــيرة بحيث أدرك تماما ســـبب تغيري، وخيل ألي مرتين أنه يريد أن يتحدث إلي في هذا الموضـــوع ولكنني تحاشـــيته ولم يصر من جانبه علي الحديث.

لا يعبأ الذين يعيشون في العواصم بالحوادث الصغيرة لانشغالهم بما هو أهم وأخطر. ولا يتصـــورون ما يكون لهذه الحوادث على ضـــآلتها من الخطر والأثر في المدن الصـــغيرة والقرى البعيدة.. مثال ذلك وصـــول البريد، ففي يومي الجمعة والثلاثاء من كل أسبوع تكتظ مكاتب المعسكر بالناس. هذا ينتظر نقوداً وذاك رسـالة وهؤلاء يسـألون عن الصـحف. كل يتلقف ما له في شـغف واهتمام. وأذكر أن رسائل سيلفيو كانت تعنون إلى معسكرنا، وانه كان يزورنا وقت وصـول البريد لتسـلمها. وفي أحد هذه الأيام تسـلم خطابا، فلما لمح اسـم الجهة الصادر منها حتى لمعت عيناه وأسرع بفضه وقراءته في تأثر وحماس.

وبالطبع لم يدرك أحد ســـواي هذه التغيرات التي بدت في ملامح وجهه وحركات يديه لانشغال الجميع بقراءة رسائلهم.

وبعد لحظات التفت الرجل إلينا قائلاً (يضـــطرني العمل إلى مغادرة القرية هذا المســـاء، وأنا لذلك أدعوكم لتناول الغداء معي اليوم للمرة الأخيرة، وكلي أمل ألا أحرم من لقائكم جميعا) ثم أشـار إليّ بالذات وقال (وكم أتمنى أن أراك بينهم!) ثم أسـرع بمغادرة المكان كما أسـرع كل منا إلى جناحه الخاص بعد أن اتفقنا على إجابة الدعوة.

ووصـلت إلى منزل سـيليفيو في السـاعة التي عينها فوجدت ضـباط الفرقة جميعا هنـاك، ورأيت كل أثـاث المنزل قد جمع وربط اســـتعداداً للرحيل،

وأبصرت الجدران عارية من أغلفة الرصاص.. جلسنا إلى المائدة وأكلنا هنيئا وشربنا حتى ثملنا، وكنا نكثر من الخمر التي ما أن نصبها في الكؤوس حتى تغرينا بزبدها ورائحتها فنتجرعها، ولما انتهينا (وكنا قد أطلنا الجلوس) لبسنا قبعاتنا وهممنا بالانصراف راجين لمضيفنا العزيز التوفيق في رحلته، فأجاب شاكراً وأخذ يرد تحية ضيوفه واحداً واحداً حتى جاء دوري فأسر إليّ (إنني أريد أن أتحدث إليك برهة من الزمن!) فلم أر بداً من المكوث بعد انصراف الآخرين.

جلس كل منا قبالة صاحبه وأخذنا ندخن في سكون، وقد كان سيليفيو متعبا شاحب الوجه، وان عجبت لشيء فلم أعجب الا من هذا التغير الفجائي الذي بدا عليه، فقد غاض ذلك السرور الذي أشرق به وجهه ساعة الغداء، واختفى بريق عينيه وضعفت نظراته وأصبح منظره وهو ينظر إلى سحائب الدخان المتصاعدة من غليونه منظر الشيطان!.

وبعد بضع دقائق قال : (قد لا نلتقي بعد هذا المساء، ولذلك أرى من واجبي أن أشرح لك بعض أمور لا أشك في أنك تساءلت عنها بينك وبين نفسك... وأنا وإن كنت لا أعير آراء الشباب اهتماما سأخبرك عما تريد لأنني أميل إليك وأعجب بك!) ولما رآني أسكت وأتحاشى نظراته أفرغ غليونه وواصل حديثه (لقد دهشت على ما أرى لتصرفي مع الضابط السكير رسيانوف في الليلة التي تذكرها ولا شك، وأظنك عجبت عندما علمت إنني لم أغسل الإهانة التي لحقتني ومع هذا فأنا اعتبر عدم إقدامي على مبارزة ذلك الأحمق كرماً مني، لأني (وقد كان اختيار السلاح لي) أثق بانتصاري عليه وقتله مهما كان السلاح، ومهما كانت طريقة المبارزة، ولكني في الواقع لا أملك حياتي!؟).

نظرت إليه في دهشة واستغراب... ومضى يقول : منذ ستة أعوام تلقيت ضربة من شخص لا يزال على قيد الحياة!؟ هنا زادت دهشتي فسألته مسرعا :

أو لم تقابله؟ لا ريب في أن ظرفا خاصـــا منعك من لقائه فأجاب : (لقد قابلته، وهذا ما أسفر عنه لقاؤنا).

وقام وأحضـر من صـندوق قريب قلنسـوة من القماش الأحمر لها زر معقود وضفائر مموهة مثل القبعات التي يسميها الفرنسيون ولما لبسها رأيت ثقبا يدل على أن رصاصة اخترقتها على مسافة بوصة واحدة من الجبهة!.

وواصل حديثه قائلا (أنت تعرف أنني كنت في فرقة الفرسان الإمبراطورية، وتعرف خلقي فأنا أحب أن أســود الجميع، ولقد كانت هذه الرغبة في الســيادة أيام شبابي قوية إلى درجة الجنون، وكانت لذة الشبان في المشاجرة وقت ذاك، ولهذا كنت شيخ المتشاجرين وزعيمهم في الفرقة، وكنا نفخر بالسكر والعربدة، أما أنا فكنت أفوق في الشراب (ب) الشهير في أغنية دافيدوف.. لي في كل يوم مبارزة أمثل فيها الدور الأول أو الثاني فينظر ألي زملائي نظرة الإعجاب، أما رؤسائي فكانوا يعتقدون أنني كالطاعون الذي لا خلاص منه ولا نجاة!.

(و ظللت أعيش وسـط معالم الانتصـار وعلائم الرهبة حتى نقل إلى فرقتنا شـاب غني من أسـرة نبيلة، وأنا لا أريد أن أذكر لك اسـمه، ولكن ثق أنني لم أقابل شخصاً له حظ هذا الشاب، فيه كل ما تتصور من القوة والنشاط، وكل ما تحلم به من الجمال والرشاقة، وكل ما تتمناه من الذكاء وسرعة البديهة والرقة في الحديث بل كل ما تصـبو إليه من الثروة والبذخ... فيه كل هذا وأكثر منه : إقدام غريب لا يعبأ بالخطر أو الموت، ولا يفكر في الهزيمة... فما أن وصـل هذا الشـاب فرقتنا حتى تلاشـى نفوذي وزالت سـطوتي، وقد أراد أول مجيئه مصاحبتي لما رآه من الزعامة المعقودة عليّ، ولكني قابلته بفتور ولذلك تركني دون أن يظهر عليه شيء من التأثر).

(وأقول لك الحق لقد كرهته لما رأيت من شـغف الجميع به واحترامهم إياه ولما شـاهدته من إعجاب السـيدات به وتهالكهن عليه وكم حاولت أن أجره إلى الشـجار معي بأسـلوبي التهكمي اللاذع وسـخريتي المتصـلة، ولكنه كان يجيب

على ذلك بسرعة خاطره وذكائه وميله إلى السرور.. كنت أجدّ دائما وكان يمزح دائما، وفي النهاية بينما كنا في منزل بولندي نحضر حفلة من حفلات الرقص أسررت في أذنه جملة مهينة لكرامته لما رأيته من شغف ربة البيت به وصدوفها عني مع أنها كانت تعبدني قبل أن تتعرف إلى هذا الشاب الغني الجميل فما كان منه الا أن صفعني، فأسرعت إلى سيفي وأسرع إلى سيفه.. وقامت الدنيا وقعدت. وفقد بعض السيدات صوابهن، واندفع زملاؤنا وحالوا بيننا وبين الشجار؛ ولكنا غادرنا المكان رغبة منا في المبارزة الصريحة حتى يغسل كل وأحد منا الإهانة التي لحقته بالدم!.

(وذهبت مع شهودي الثلاثة إلى المكان المعهود، وكنت أنتظر غريمي في قلق واضطراب.. طلعت الشمس وأخذت حرارتها تزداد شيئاً فشيئا، وأتى يتهادى في مشيته مرتدياً قميصه واضعاً رداءه الرسمي على كتفه، يحمل في يده قبعته التي ملأها بفاكهة الكريز ولم يكن معه غير شاهد وأحد.

أقمنا الشهود في نقطتين تبعد إحداهما عن الأخرى باثنتي عشرة خطوة، وكان من حقي أن تكون طلقتي الأولى، ولكني رفضت لما كنت أخشاه من أخطائه في حالتي العصبية. ورفض هو الآخر ولذلك تركنا المسألة للمصادفة وكانت في جانب هذا الشاب الذي أفسده الحظ الحسن. أطلق رصاصته ولكنها اخترقت قبعتي ولم تصبني بسوء، وجاء دوري فشعرت أنه تحت رحمتي فأستطيع إذا شئت أن أسلبه نعمة السعادة بل نعمة الحياة.. نظرت إليه في شوق، وكنت أنتظر أن أراه ممتقعاً شاحب الوجه. ولكن خاب ظني لأني رأيته يأكل فاكهته في هدوء واطمئنان ويلقي بالبذور إلى ناحيتي فتتساقط تحت أقدامي).

(فكرت في نفسي ماذا أجني من أخذ حياة هذا الشاب الذي لا يعنى بالحياة! ولمعت عيناي عندما خطر لي خاطر غريب، وأفرغت بندقيتي وقلت له، يخيل

ألي أنك لا تهتم كثيراً بموتك أو حياتك في هذه اللحظة، وأنك تعنى بأفكارك أكثر من عنايتك بالمبارزة.. ليكن ما تراه فليس عندي الرغبة في إزعاجك.

فأجاب : أحب أن تلزم عملك فقط، وأرجو أن تطلق رصاصتك ولكن يجب أن تذكر أن لك أن تطلقها في المكان والزمان اللذين تشاء، وأنا رهن إشارتك في كل حين!).

(غادرت المكان وأنا أقول لشهودي أنا لا أرغب في إطلاق رصاصتي في هذا اليوم وانتهت المسألة وقت ذاك على هذه الصورة.

ثم أرسلت استقالتي من الجيش واعتكفت في هذه القرية المتواضعة وأنا لا أفكر في غير شيء وأحد هو الانتقام، وقد جاء وقته!).

وعندئذ أخرج سيليفيو الرسالة التي تلقاها هذا الصباح من أحد معارفه (ولعله محاميه) يقول له في أن الرجل (المطلوب) سيتزوج في القريب العاجل من فتاة رائعة الجمال.. ثم مضى في حديثه يقول (وليس من شك في أن الرجل المطلوب هو عدوي الذي أريد الانتقام منه. وهأنا ذاهب إلى موسكو. وسأرى إذا كان يقابل الموت وسط أفراح العرس بالفتور الذي قابله به وقت ذاك. وفي يده رطل من فاكهة الكريز).

ولما نطق بهذه الكلمات ألقي بقبعته إلى الأرض. منفعلاً ثم أخذ يسير في الغرفة جيئة وذهاباً كما يسير النمر المحبوس! ولم أعترضه أثناء حديثه فقد ملك لبي واسترعى انتباهي وأثار في أنواعاً متضاربة من العواطف.

ودخل أحد الخدم يقول لسيده. إن العربة قد أعدت، وهنا تناول سيليفيو يدي وصافحني في حرارة، وركب العربة التي كان فيها صندوقان يحتوي أحدهما على أسلحة الرجل وبنادقه ويحتوي الآخر على أدواته وملابسه.. ثم حياني مرة أخرى قبل أن تتحرك العربة، وفي الحق لقد كان وداعاً مؤثراً...

مرت السنون، ودعتني مصلحة الأسرة للعيش في هذه القرية المظلمة في مقاطعة (يرنا)؛ وكم تمنيت لو أتيحت لي العودة إلى حياة الجندية وما كان لي فيها من متعة الاجتماع ولذة الشباب؛ وكانت حياتي هنا مملة في تشابه أيامها قاتمة لندرة حوادثها، أقضي وقتي حتى الغداء في التحدث إلى المالك أو في مراقبة العمال ومشاهدة المباني الجديدة، فإذا جن المساء (و خصوصا أمسيات الشتاء والربيع الطويلة المزعجة) لم أجد ملهاة ولا تسلية، فقد قرأت الكتب القديمة الموجودة كلها، واستعدت من خادمتي العجوز (كربلوفنا) القصص التي تحفظها أكثر من مرة، ولم أكن أميل إلى أغاني القرويين لما فيها وفي معانيها من الحزن والألم والحسرة، وحظي من هذا كله كثير. أما الشراب فقد كنت أتجرع كل ما تصل إليه يدي على رداءة نوعه وحدة طعمه، وقد تمنيت أن أكون سكيراً كهؤلاء الذين تكتظ بهم هذه القرية الغريبة.

وكان جيراني الأقربون جماعة من السكيرين، حديثهم زفرات متصلة وأنات متقطعة. فكيف لا أوثر الوحدة على الاجتماع بهؤلاء؟ ولم أجد حلاً لهذا السأم سوى التبكير في اليقظة، والتأخير في تناول الغداء. حتى يطول نهاري ويقصر ليلي.

وعلى بعد أربعة فراسخ من منزلنا توجد المقاطعة الجميلة التي تملكها (الكونتس بيروفنا) ويسكن هذه المقاطعة وكيل السيدة، أما هي فلم تزرها غير مرة واحدة في الشهر الأول من زواجها.

وفي يوم من أيام العام الثاني لحياتي في هذه القرية سمعت أن الكونتس وزوجها سيقضيان الصيف في مقاطعتهما، ولقد وصلا حقا مع حاشيتهما في النصف الأول من شهر يونية.

وليس من شك في أن قدوم جار غني يعتبر حادثا هاماً في حياة الريف. وقد تحدث الناس عن هذا الحادث قبل حدوثه بثلاثة أسابيع، ولا يزالون يتحدثون فيه حتى اليوم مع مرور ثلاثة أعوام عليه. أما أنا فلم يثر في غير الشعور

بقرب سيدة شابة رائعة الجمال، حتى إذا جاء الأحد الأول على إقامتهما تناولت غدائي وأسرعت إلى قصرهما لأقدم نفسي للسيدة بصفتي جارها القريب وخادمها المطيع.

قادني الحاجب إلى المكتبة فبهرني أثاثها البديع ومساحتها المتسعة، هنا رفوف صفت الكتب والمجلدات فوقها على كل منها اسم مكتوب بالبرنز، وهناك تماثيل ومرآة، وعلى الأرض بساط أخضر عليه سجاجيد عجمية رائعة النقوش، ولما لم أكن متعوداً هذه المناظر المترفة شعرت بضآلة مركزي وضعة شأني، وداخلني شعور غريب فيه من الحيرة والخجل ما فيه، وأصبحت كالفلاح الساذج الذي يطلب مقابلة الوزير!.

فتح الباب ودخل رجل في الثانية والثلاثين أو يقاربها، فما رآني حتى هش لي وابتسم في وجهي... أخذت أسرد عبارات التحية المعروفة كأن أقول أنني مسرور بلقائه وأن... وأن... ولكنه وقفني عند حدي بحديثه الطريف ورحب بي.

وما أن استعدت هدوء نفسي أمام ابتسامته وتواضعه حتى فتح الباب ودخلت الكونتس، هنا اصطكت ركبتاي وانعقد لساني... لقد كانت آية من آيات الجمال والرشاقة، وكم حاولت أن أجيبها فلم أستطع ولاحظ الكونت اضطرابي فراح يقدمني إلى زوجته في أسلوب عادي كأنني صديق قديم.

وجلت بنظري في المكتبة حتى استقرت عيناي على الصور ولم أكن من غواة الصور أو نقادها، ولكن صورة واحدة استوقفتني لا لما تمثله من المناظر السويسرية الساحرة ولكن لأن طلقتين اخترقتاها واحدة فوق أخرى!.

التفت إلى الكونت وقلت (ما أجمل هذه الصورة!) فرد مبتسما (نعم! وهي على جمالها لها عندي مركز خاص. هل تحسن إطلاق الرصاص؟).

فأجبت على سؤاله مسرعاً لأنني وجدت فرصة سانحة للتحدث في موضوع أفهمه (أجل! وأنا أستطيع إصابة بطاقة على بعد ثلاثين خطوة) وهنا تدخلت الكونتس (حقا! وأنت يا عزيزي هل تستطيع إصابة بطاقة على بعد ثلاثين خطوة؟).

فأجاب الرجل : (لا أدري! لقد كنت ماهراً في الرماية أيام شبابي.. وقد مضى علي أربع سنوات لم ألمس فيها بندقية).

قلت (صدقني يا سيدي أنك لا تستطيع إصابة البطاقة على بعد عشرين خطوة وأنا أراهنك على ذلك، لأن الرماية تحتاج إلى مران مستمر.. وأذكر أنني لم أستعمل بندقيتي شهرا كاملا أيام كنت في الجيش لأنها كانت عند مصلح الأسلحة.. أتدري ماذا حدث؟ لقد أخطأت زجاجة على بعد خمس وعشرين خطوة لا مرة واحدة ولكن أربع مرات متتابعة! وكان لفرقتنا قائد يحب المزاح دائما فقال : أظنك تحترم الزجاجة أيها الصديق! فالتمرين واجب.. وأذكر أن أمهر من قابلت في هذا الضرب من ضروب الرياضة رجل غريب كان يتدرب على إطلاق الرصاص ثلاث مرات قبل الغداء على الأقل.. وكما أنه لا يستطيع نسيان الكونياك لا ينسى بندقيته مطلقا!).

ورأيت الزوجين يعجبان من حديثي ويقبلان على الإنصات.

سألني الكونت (وما طريقته؟). فأجبت (سأقص ذلك عليكما.. كان إذا رأى ذبابة على الحائط.. أنت تضحكين يا سيدتي؟ أقسم لك أن ما أقوله حق لا ريب فيه.. ثم ينادي خادمه. كوسكا هات بندقيتي! فيأتي له بها ثم.. طراخ! فإذا بالذبابة منبطحة على الحائط!).

فصاح الكونت : (يا لها من مهارة! وما اسمه؟) فأجبت (اسمه سيلفيو يا سيدي) فانتفض الرجل واقفا وهو يقول (سيلفيو؟ وهل عرفت سيلفيو؟).

قلت (أعرفه؟ لقد كنا صديقين.. وكان سيلفيو معي في الفرقة؛ وها قد مضت خمسة أعوام على ذلك.. هل تعرفه أنت؟).

فقال الكونت (أجل أعرفه تماما. أو لم يخبرك عن حادث فريد وقع له؟)

- (أخبرني كيف لطمه شاب وقح على وجهه في مساء أحد الأيام)

- (وهل ذكر لك اسم هذا الشاب الوقح؟)

(لا لم يطلعني على اسمه.. آه!) وهنا استدركت لأنه يغلب على ظني أن الشاب هو الكونت وقلت (عفوا سيدي.. لم أكن أعلم! ولكن يغلب على ظني أنه أنت!) أجاب الكونت في ارتباك : (أجل هو أنا.. وهذه الصورة ذات الثقب نتيجة لقائنا الأخير!).

هنا اعترضت الكونتس قائلة (نشدتك الله يا عزيزي ألا تتحدث في هذا الموضوع، إن مجرد التفكير فيه يرعبني حتى اليوم!) ولكن الكونت لم يحقق رجاءها بل قال (يجب أن يعرف السيد كل ما يتصل بالموضوع، فهو يعلم كيف أهنت صديقه فمن الواجب أن نروي له كيف انتقم ذلك الصديق.).

ودعاني الرجل إلى الجلوس قريبا منه في مقعد ذي مسند وأخذت أنصت لهذه القصة.

تزوجنا منذ خمسة أعوام وقضينا شهر العسل في هذا المنزل؛ وفي الحق لقد كانت أهنأ أيام حياتي لو لم تعكرها هذه الحادثة المزعجة.

وفي مساء أحد الأيام ركبت مع زوجتي للنزهة ولكن الجواد جمح بنا حتى ارتاعت زوجتي ورجتني أن أعود بالعربة إلى الإسطبل أما هي فستعود سيرا على الأقدام، ولم أكد أصل إلى الدار حتى رأيت عربة سفر أمام الباب. وقيل لي أن إنسانا لم يذكر اسمه ينتظرني لمهمة خاصة في المكتبة.. أسرعت إلى هناك فوجدت رجلا لا يزال في ثياب السفر له لحية طويلة، وأخذت أتذكر أين رأيته قبل ذلك..

وقال الرجل : أولا تذكرني أيها الكونت؟، وكان صوته مضطربا.. فصحت عند ذلك : سيلفيو!.

وأقول الحق لقد وقف شـــعري من الرعب. وقال صـــاحبنا جئت لأطلق رصـاصـتي. فهل أنت مسـتعد؟، ورأيت بندقيته بين طيات ثيابه وعددت اثنتي عشـــرة خطوة ورجوتـه أن يســـرع في مهمتـه لأن زوجتي في الطريق إلى المنزل؛ ولكنه قال أريد النور أولا، لذلك طلبت الشموع.

ثم أغلقت الباب وأمرت ألا يســـمح لأحد بالدخول، ورجوته مرة أخرى أن ينجز مهمتـه فرفع بندقيته وأخذت أعد الثواني ولم أكن أفكر في غير زوجتي حتى إذا انقضـــت دقيقة كاملة خفض بندقيته وقال (أنا آســـف جداً لأن بندقيتي ليست محشوة ببذور الكريز! والرصاص كما تعلم صعب الاحتمال! ولكن تعال نفكر في المسألة مرة أخرى.. لا أرى مبارزة فيما أنا مقدم عليه.. بل هي أقرب ما تكون إلى القتل، وليس من عادتي إطلاق الرصـاص على شـخص أعزل من الســلاح، هيا نبدأ المبارزة من جديد فنرى أينا يبدأ... وأعددنا ورقتين كتبتا في الأولى رقم ١ وفي الثانية ٢ ووضــعناهما في القبعة التي أصــبتها في المبارزة الأولى... وتناول كل منا ورقة دون أن ينظر فيها فإذا بورقتي رقم وأحد وهنا صاح سيلفيو ((لا أنكر أيها الكونت أن حظك حسن كحظ الشيطان!)).

لم أفهم غرضه وأجبرني على أن أطلق رصاصتي التي لم تصبه بل أصابت الصورة التي تراها!.

وأشار الرجل إلى الصورة التي استرعت انتباهي أول جلوسي وصار وجه الكونت أحمر قرمزيا وأصـبح وجه زوجته كوجوه التماثيل الرخامية البيضـاء. أما أنا فقد تعثرت بين شفتي أنة خافتة وأتم مضيفي قصته :

أشكر الله لقد أخطأته رصاصتي : أما هو فقد كان رابط الجأش ثابتاً ينتظر.. فتح الباب فجأة ودخلت زوجتي فلم تكد ترانا على هذه الصـــورة حتى ألقت بنفسـها عند أقدامي، وهنا اسـتعدت شـجاعتي وقلت لها، عزيزتي، ألسـت ترين

أننا نمزح؟ اذهبي واشربي قدحا من الماء ثم عودي الينا، وعند عودتك سأقدم إليك صديقي وزميلي القديم، ولكنها لم تصدقني وسألت سيلفيو في رهبة وتأثر، هل أصدق زوجي فأعتقد أنكما تمزحان، فأجاب، انه يمزح دائما يا سيدتي، اتفق مرة أن صفعني وهو يمزح، وأصاب قبعتي برصاصته وهو يمزح، ومنذ دقائق أخطأني وهو يمزح أيضا، والآن جاء دوري لأضحك قليلا!، ثم استعد، ولكن زوجتي جثت بين قدميه... عندئذ قلت لها، انهضي يا عزيزتي! ألا تخجلين من نفسك؟؛ ثم وجهت حديثي إليه وقلت هل تريد أن يغشى على هذه السيدة؟ فلتطلق رصاصتك! قل نعم أو لا! فأجاب : لن أطلق رصاصتي فقد تم غرضي، ها أنت ذا ترتعد من الخوف وها هو وجهك كوجوه الموتى، وهذا كل ما أطمع فيه.. ولكن أذكر أنني أعطيتك فرصة ثانية وكنت أظن أنك لن تخطئني... لن تنساني بعد الساعة.. سأتركك لضميرك يرى رأيه فيك!.

واتجه نحو الباب، ثم التفت إلى الصورة دون أن يستعد وأطلق رصاصته فوق رصاصتي تماما! وهنا أغمي على زوجتي ولم يستطع الخدم الوقوف في وجهه وقد كانت الأبواب تفتح أمامه في سرعة حتى وصل إلى عربته ومضى.. أما أنا فلم أعد إلى نفسي إلا بعد مدة طويلة.

إلى هنا انتهى حديث الكونت، وهكذا سمعت هذه القصة الرائعة ولم أر بعد ذلك سيلفيو ولم أسمع عنه إلا أنه قاد جماعة من الثوار في الفتنة التي أشعلها (اسكندر ابسلانتي) وأنه قتل فيها عندما كان العدو في (سكولياني)...

أسطورة الديك الذهبي

كان يجلس على عرش مملكة قوية، لن أذكر اسمها، قيصر اسمه دادون، لا شـــبه له في الرجال. ولما كان دادون شـــجاع القلب، فإنه لم يترك واحدا من جيرانه دون أن يشـن عليه الحرب. أما وقد كبر الآن فقد رأى أن يتيح لجسـمه الهرم شـيئا من الدعة والاطمئنان. غير أن الأعداء انتهزوا الفرصـة، فهاجموا المملكة من دون رحمة، ونهبوا الديار، وطحنوا جيش دادون طحنا. أما جنوب المملكة فقد كان محصنا، والشرق هو الجهة التي كان يأتي منها العدو.

وفي ذات يوم نزلت بالشـواطئ كتيبة عاصـفة، فاضـطرب القيصـر أيما اضـــطراب، وهجر النوم جفنه. خيل إليه أن حياته لم تكن في يوم ما أمر منها الأن، فلم ير إلا أن يطلب العون من منجم الدولة، ذلك الخصـي الشـيخ الممتلئ حكمة ومعرفة.. لبى الخصـي النداء، وجاء البلاط يحمل في حقيبته ديكا ذهبيا، وقال: (ليأمر مولاي بنصـــيب هذا الديك على عمود من الخشـــب، فيحرس المملكة. فإنه إذا لم يكن ثمت خطر ظل هادئا مطمئنا، فإذا لاح الخطر في الأفق انتفض من ســكونه، وانتفخ عرفه الأحمر، وصـــاح صـــيحة تنبه القوم، وأشار إلى الجهة التي يأتي منها العدو).

فرح القيصـر لهذا الحل السـعيد، وقال: (سـأعطيك في مقابل هذا ما تريد. ستكون رغبتك رغبة القيصر أين شئت ومتى أردت).

وجثم الديك في مكانه يســـهر على المملكة، بينما أوي القيصـــر الهرم إلى فراشـــه ينعم بالنوم الهنيء، ولا يلقي بالا إلى حوادث الزمن. ولم يعد الخطر يدهم الناس، ولم تعد فخاخ تهدد القيصر العجوز.. دادون!...

فلما مر عامان كاملان، إذا بأصـوات تزلزل الأفق وتطرد النوم الهنيء عن عيون الناس. وأقبل قائد الجيش صـائحا: قيصـري وسيدي، انهض فالمملكة في

حاجة إلى ابنيك الباسلين! تأوه القيصر ثم قال: ما الخبر؟ فأجاب قائد الجيش: الديك صاح.. والناس في رعب شديد. وتلفت القيصر حواليه، وأرهف السمع، فإذا صيحات من المشرق، وإذا الديك قائم منتفض يصيح: كوكو.. روكو!.. كوكو.. روكو! فالتفت القيصر إلى القائد صارخا: أعدوا الجياد.. أعدوا السلاح... انطلقوا سريعا إلى الحدود! وإلى الشرق طار الجيش الكثيف يقوده الابن الأكبر لدادون.. حينئذ هدأت ثورة الديك؛ وكف عن الصياح!.

مضت أيام ثمانية ولم يأتي عن الجيش خبر: أقاتل، أم فر؟ صه...! صه...! لقد صاح الديك من جديد - فليذهب الجيش الثاني إلى الشرق وعلى رأسه الابن الثاني لدادون. نعم، وفي هذه المرة أيضاً مرت أيام ثمانية ولم يأت الخبر! فلما صاح الديك للمرة الثالثة، هب دادون العجوز، وقاد سائر الجند بنفسه، ومضى إلى الشرق وهو يطمئن الناس، وإن لم يكن هو في دخيلة نفسه بمطمئن...

ساروا الليل والنهار حتى أدركهم التعب وهمدت قواهم. هذا والقيصر في عجب ودهشة : لا دليل على معركة... ولا أثر لساحة... ولا معسكر... ولا رجمة يثوى تحتها بطل...

في نهاية اليوم الثامن، صعد القيصر في شعب نل، فصعد خلفه الجنود - فماذا رأوا؟!.

بين قمتين من الصخر رأوا خيمة من الحرير قائمة! كان صمت عجيب يسيطر على المكان.. وفي مجرى ضيق بسفح الجبل، وجد القيصر أبطاله الذين أرسلهم مذبوحين... وأمام باب الخيمة وجد ابنيه الأكبر والأصغر، كلا ملقى بلا دروع، وقد أغمد سيفه في جنب أخيه. كان الكلأ مصبوغا بالدم، والجياد تمرح في الوديان والقيصر المسكين يولول في جنون: آه يا ابنيَّ! كلا النسرين صاده الصياد... وا ضيعتي!!) وناحت الجنود لنواحه، ورددت الآفاق الصدى، فكأنما شارك الجماد في الحزن والأنين...

وعلى حين فجأة انشق ستار الخيمة عن ملكة شاماخان تلمع لمعان الشروق، أومأت إلى القصـــر محيية، فلاح دادون وكأنه طير من طيور الليل في ســناها الخاطف، سمرت عيناه في جمالها، وطار من رأسه كل حزن وأسى على ابنيه اللذين لقيا الهلاك. وتبسـمت هي لدادون، ثم انحنت قليلا، فأمسـكت بيده وقادته إلى داخل خدرها، وقدمت إليه طعاما ملكيا فاخرا، فلما تناول منه، قادته إلى أريكة موشاة بالذهب، مسترة بالدمقس.

سـبعة أيام وسـبع ليال، والقيصـر (دادون) ينهل من السـرور، ويطيع الملكة طاعة عمياء. ثم حان الرحيل، فتأهبت الجنود، وهيئوا الركاب، وســار الجميع في طريقهم إلى عاصمة المملكة..

كان الناس قد بلغهم الخبر، فإذا جموع هائلة بأبواب المدينة، وإذا هتاف عال يستقبل الموكب: عاش دادون! عاشت الملكة! عاش دادون! عاشت الملكة!.

ولكن من هذا الرجل الأبيض الرأس واللحية الذي يشـــق الجموع ليلحق بعربة القيصر؟ إنه الخصي الحكيم!.

أقبل على القيصـــر يقول: تحيتي يا مولاي! فقال القيصـــر: ماذا تريد؟ قال: حسـاب بيننا يا سـيدي... لقد أقسـمت أن تجيب رغبتي... إني أريد هذه الفتاة... ملكة شاماخان!.

فصـــرخ الملك دهشـــا: إنك تهذي... ما نفع فتاة لخصـــي؟ اطلب شـيئا آخر فأقدمـه إليك... اطلب خير مـا في حظيرتي من جيـاد، أو مرتبـة من مراتـب الحكم، أو إن شئت فاطلب ذهبا... حتى نصف ما في المملكة!.

قال الساحر: لا شيء مما يوهب يستحق أن يرغب فيه... إني لا أطلب غير ملكة شاماخان!.

جن القيصر من الغضب وصاح: لقد أخطأت في تقدير ثمنك أيها العبد... لم يكن جديرا بي أن أتركك تتحدث!.

وبصــولجانه قرع دادون هامة الخصــي قرعة شــديدة، فســقط الرجل على الأرض ميتا!.

وحينئذ اهتزت المدينة اهتزازا شديدا ارتعب له قلب دادون! ولكن الفتاة علا ضـحكها في تلك السـاعة... فما كان منه إلا أن تكلف الابتسـام، وأمر بمواصـلة المسير...

وعلى حين فجأة سـمع صـوت ضـئيل، وإذا بالديك الذهبي يطير إلى العربة الملكية، وإذا به يستقر على هامة القيصـر فنفض ريشـه أولا، ثم نقر دادون في وسط هامته، ثم حلق في الجو عائدا إلى السماء...

ونزل القيصــر من العربة، فإذا به يســقط على الأرض بدوره، وإذا به يئن أنة واحدة... ثم يسلم الروح!.

أما الملكة، فإن أحدا لم يرها بعد، وكأنها لم تكن هناك!!

إن الأساطير وإن بعدت عن الحقائق قد يستفيد منها اللبيب عظة أو اثنتين..

كرد علي

(كرد علي) بلغاري بمولده. وهذا اللقب في اللغة التركية يطلق على ذوي الجرأة والقوة، ولا أعرف ما هو أصل الاسم الذي يتسمى به بطل هذه القصة فقد أطلق عليه لقب (كرد علي) وعرف به وأصبح شخصية مخوفة مرعبة في أنحاء (مولدا فيا) لكثرة ما يرتكبه من العدوان.

ولما أعلن إسكندر أبسلانتي الثورة وأخذ في حشد المتطوعة جمع له كرد على أصحابه القدامى من قطاع الطرق ومن على شاكلتهم وكان هؤلاء لا يدركون حقيقة السبب في نشوب الثورة؛ فقد كان مثيرها يبغي من ورائها تحرير اليونان. ولكنهم كانوا يرون في الحصول على الثروة من أسلاب الأتراك أو أهل مولدا فيا سببا كافيا لنشوب أية ثورة.

وكان إسكندر أبسلانتي شجاعا، ولكن لم يتوافر لديه من الصفات ما يكفي لتنفيذ المهمة التي اضطلع بها، فلم يستطع السيطرة على رجاله الذين لم يكونوا يحترمونه ولم يكونوا يثقون به.

وبعد الموقعة التي أفنى فيها زهرة الشباب اليوناني أشار عليه يوردا كي ألمبيوتي بالتخلف. وتولى هو مكانه. وهرب أبسلانتي إلى حدود النمسا ثم أرسل لعناته إلى الشعب الذي كان يقوده واصفا رجاله بأنهم خونة جبناء سفلة.

ولكن هؤلاء الموصوفين بالخيانة وبالجبن هلكوا تحت أسوار معبد سيكوا أو على ضفاف نهر بروث وهم يدافعون دفاع المستميت جيشا يربو عدده على عشرة أمثال عددهم.

وكان كرد علي في فرقة جورج كانتا كوزين الذي يصح أن يقال عنه ما قيل عن أبسلانتي.

وفي الليلة التي حدثت فيها موقعة أسكولانا أستأذن كانتا كوزين السلطات الرسمية، وتخلف عن فرقته منضما إلى جيشنا فبقيت فرقته بغير قائد، ولكن كرد علي وسفيانوس وكانتاجوني وغيرهم لم يكونوا بحاجة إلى قائد.

ولم توصف موقعة أسكولانا على ما يظهر بالوصف الذي تستحقه فتخيل سبعمائة رجل من الألبان واليونان والبلغار وحثالات كل الأجناس وليس فيهم من يعرف شيئا عن فنون الحرب... تخيل هؤلاء أمام خمسة عشر ألف فارس من فرسان الجيش التركي العظيم.

عسكرت هذه الفرقة أمام نهر بروث وأمامها مدفعان قل في الفرقة من يعرف كيف يستعملان. وكان بود الأتراك أن يبدؤوا بإطلاق النار ولكنهم في تشبث وعناد أرادوا أن نكون نحن البادئين.

وكان قائدنا بحمد الله لم يسمع قط صوت رصاصة تطلق، فلما بدأ الجيشان بإطلاق الرصاص في الهواء نفر سمعه، ونفد صبره، وتقدم جيشنا متوعدا الجيش التركي بثباته ثم ارتبك فلم يعرف ماذا يفعل. ثم بدا له أن يجري فجرى على شاطئ النهر وجرى وراءه جيشه. وفي أثره كتلة الجيش التركي.

وكان هذا القائد الذي هدد جيش الترك بإصبعه يدعى خوتشفسكي ولا أعرف ماذا صار إليه أمره.

وفي اليوم التالي هاجم الأتراك الثوار وعلى خلاف عادة الترك لم يستعملوا المدافع، بل استعملوا السلاح الأبيض، فكنت ترى الرمح في يد كل جندي. ولم يكن الأتراك قد استعملوا الرماح من قبل. وكانت رماحهم روسية سلبوها من جنودنا في موقعة سابقة. جرح كرد علي في تلك الموقعة، وقتل سفيانوس. وكان كانتا جوني عظيم الجسم فأصابته حربة في بطنه فاستل سيفه بإحدى يديه، وقتل نفسه حتى لا يموت بسلاح العدو.

وبانتهاء هذه الموقعة تم النصـــر للأتراك. وخلت مولدا فيا من الثوار إلا ستمائة ألباني تشردوا في أنحاء بسار أبيا. ومع أنهم كانوا لا يكادون يحصلون على القوت فإنهم كانوا شاكرين حماية روسيا وكانوا يرون جلوسا في المقاهي الصغيرة في بسار أبيا التركية الروسية وعلى أفواههم أقداح القهوة. وقد أخذت الرثاثة تبدو على أكسيتهم الملونة وأحذيتهم الحمراء. ولكن طرابيشهم المطولة ذات الزر الطويل كانت لا تزال مائلة إلى أحد الجانبين. وكانت الخناجر والمسدسات لا تزال على مناطقهم ولكن أحدا لم يشك فيهم، فقد كان من المحال أن يتصور إنسان أن هؤلاء المساكين بقية من ثوار مولدا فيا زملاء كرد علي وأن كرد علي نفسه كان بينهم.

على أن الباشا التركي علم بهذه الحقيقة وطلب إلى السلطات الروسية عملا بالمعاهدات أن تسلمهم إليه فاعتقلتهم ولم ينكر كرد علي شخصيته ولم ينكر ماضيه وقال:

(ولكنني منذ عبرت نهر بروث على أثر الموقعة لم أمد يدي على أي إنسان، وقد يكون الأتراك وأهل مولدا فيا محقين في عداوتهم إياي لأني كنت أقطع الطريق عليهم، ولكنني ضيف على الروس فلماذا يسلمونني إلى أعدائي؟).

وبعد هذا القول لزم الصمت وانتظر في هدوء ما تقضي به الأقدار في شأنه. ولم يطل أمد انتظاره فإن السلطات لا تنظر إلى قطاع الطريق نظرة العطف التي يلقيها عليهم الكتاب والشعراء لانصرافهم إلى الجانب الروائي من حياتهم. ومن أجل ذلك سيق كرد علي مكبلا بالحديد فكان يبدو من النظر إلى وجهه أنه ابن الثلاثين. وقد كان طويل القامة عريض الكتفين عظيم القوة عليه علائم الخشونة ونظراته زهو وسكينة.

ودخل غرفته في السجن موظف تركي أحمر الوجه أشيب الشعر يرتدي ثوبا عسكريا قد سقطت منه ثلاثة أزرار. وفي وجهه كتلة حمراء من اللحم

مثقوبة تقوم في ذلك الوجه مقام الأنف. وكان في يده أوراق أخذ يتلوها وهو بين حين وحين ينظر إلى كرد علي وهو يصغي إليه باهتمام.

وبعد أن فرغ الموظف من القراءة طوى الأوراق وصاح في خشونة بأن يحمل السجين إلى مدينة جاسا، فالتفت كرد علي إلى الموظف وتمتم في صوت يتهدج، وقد تساقطت من عينيه العبرات وقد تغير شكله تغيرا عظيما؛ وعرته رعشة جعلت لأصفاده وأغلاله رنينا أزعج الموظف فتقهقر ثم صدع السجين بالأمر فاستسلم للجنود الذين حملوه إلى عربة جرت به في الطريق.

قال موظف صغير لذلك الموظف العسكري: (ما الذي قاله لك كرد علي؟) فأجاب وهو يبتسم: (لقد إلي أن أعني بزوجته وبابنه اللذين يعيشان غير بعيد في مدينة كيليا وهي من قرى بلغاريا فإنه يخشى أن تؤذيهم الجماهير بسببه والجماهير حمقى.

ووصل كرد علي إلى مدينة جاسا فحوكم أمام الباشا فحكم بإعدامه، ولكنه أرجأ موعد التنفيذ إلى يوم عيد. وحجز المحكوم عليه في السجن إلى أن يحين الموعد.

وتولى حراسته في السجن سبعة أتراك هم في صميم أنفسهم لا يختلفون شيئا عن كرد علي لأنهم قطاع طريق مثله. ولذلك كانوا يحترمونه ويصغون في دهشة ولذة إلى ما يقصه عليهم من الأحاديث.

ونشأت بين السجين وبين حراسه مودة وصداقة. وفي يوم من الأيام قال لهم كرد علي: (أيها الإخوان! إن ساعتي قريبة وليس يستطيع إنسان أن يفر مما قدر عليه، فسأترككم ولكني أريد أن أترك لكم أثرا تذكرونني به).

أرهف الأتراك آذانهم ليسمعوا، واستمر كرد علي يقول: (أيها الإخوان! منذ ثلاثة أعوام كنت من قطاع الطريق في منسر ميخالاكي. ودفنا بالقرب من هذه

المدينة آنية مملوءة بالمال. ثم منعتنا ظروف الثورة والحرب عن أن نستردها وسأدلكم عليها فهي لكم).

كاد الأتراك أن يفقدوا وعيهم، وكان السؤال الوحيد الذي يخطر ببال كل منهم هو كيف يستطيع الوصول إلى مكان هذه الآنية. ورأوا أنهم لا يستطيعون ذلك إلا بإرشاد السجين نعسه. فلما أقبل الليل، فكوا الحديد على يديه ورجليه وربطوه بحبل ثم أطلقوه وساروا خلفه خارجين من المدينة.

قادهم من مكان إلى مكان فمشوا مسافة طويلة. وأخيرا وقف أمام صخرة عظيمة وقال: هنا تحت هذه.

وقف الأتراك يتدبرون. لما استقر رأيهم اخرج أربعة منهم الخناجر، وأخذوا يحفرون بها حول الصخرة. وبقى ثلاثة منهم في الحراسة. وجلس كرد علي فوق الصخرة ينظر ويترقب؛ ثم قال بعد مدة : ألم تجدوها؟ فقالوا كلا.

فأظهر أنه فقد صبره وقال: من أي نوع من الناس أنتم؟ حتى حفر الأرض لا تستطيعونه؟ إنني كنت أفرغ من عملكم هذا في دقيقتين. حلوا وثاقي وأعطوني خنجرا.

ففكر الأتراك ثم قالوا؛ أي ضرر في إجابته إلى ما يطلب؟ نحن سبعة. فلنحل وثاقه ولنعطيه خنجرا.

وما أغرب الشعور الذي شعر به عند ذلك! لقد تناول الخنجر وأخذ يحفر. وفي أثناء عمله أغمد الخنجر في صدر أحدهم وتركه في صدره واختطف من منطقة المصاب مسدسين.

وما يزال كرد علي إلى اليوم يقطع الطريق بالقرب من جاسا وقد كتب منذ أيام إلى حاكم المدينة يطلب إليه في مكان عينه خمسة آلاف ليقي، متوعدا بأنه إن لم يرسلها فهو ميت لا محالة.

وقد أرسل إليه هذا المبلغ.

وهذا هو كرد علي.

فهرس الموضوعات

إسكندر بوشكين أمير الشعراء الروس ٣
المبارزة ٨
أسطورة الديك الذهبي ٢٢
كرد علي ٢٦